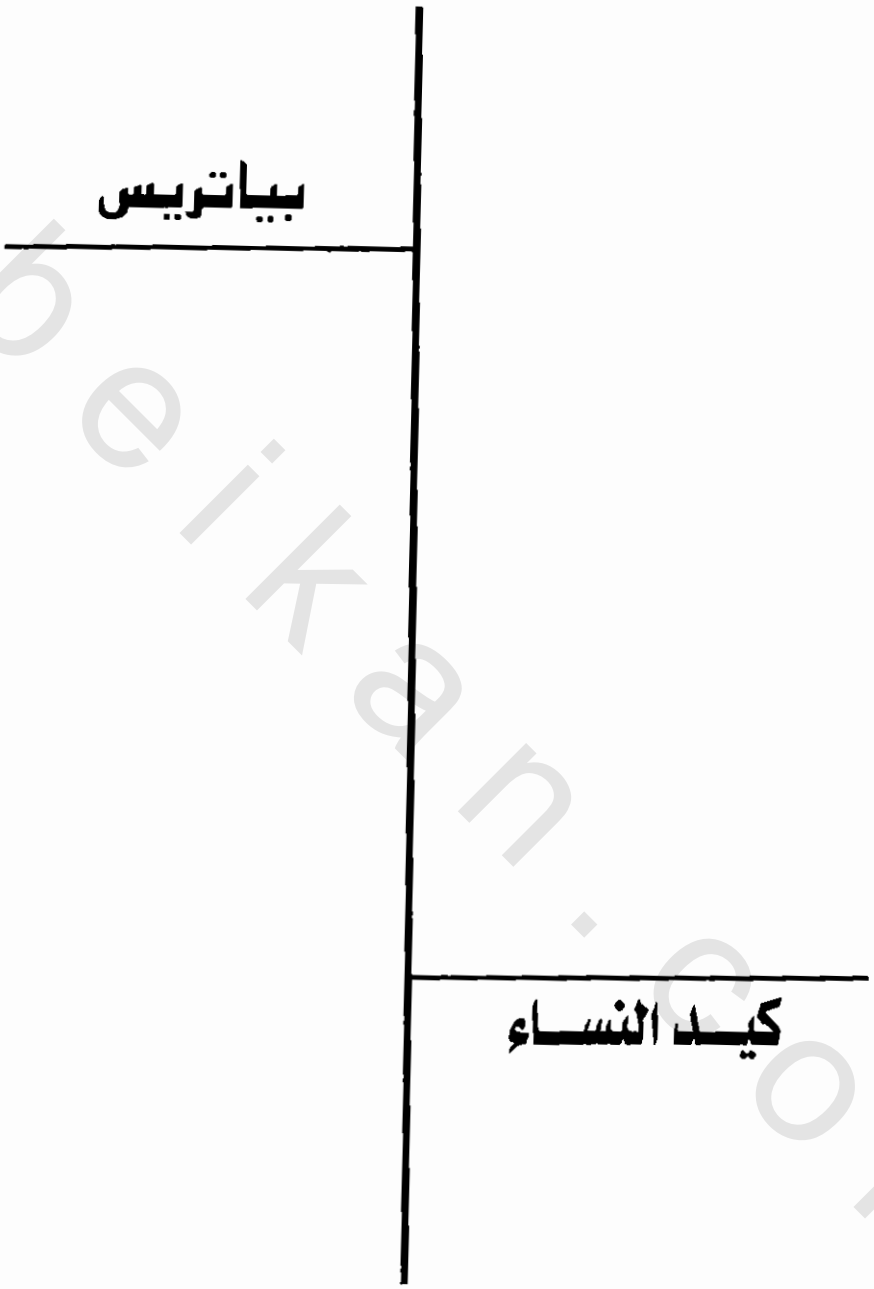

obeikan.com

obeikan.com

بياتريس

المرأة التي قتل بكيدها سلطانين وملكا

بعد موت أبيه عام ١٥٧٣م تولى مولاى محمد المتوكل عرش المغرب بمدينة فاس دون أن يحظى ببيعة العلماء أو رضاء أسرته أو حتى محبة الشعب وهو ما دفع عمه مروان بن عبد الملك أن يهب لإقصائه عن العرش بعد توليه بشهور قليلة وساعدته تلك العوامل لتحقيق ذلك ونادى بنفسه سلطانا ولقب بالمعتصم .

هرب ابن أخيه إلى مدينة مراكش وتخلى عنه رجال حاشيته إلا بعض معاونيه وأسيرة أبيه البرتغالية (بياتريس) التي رفضت الحرية حين عرضها عليها وفضلت البقاء معه ، ويبدو أن رفضها لم يكن حبا فيه ، وإنما جزء من مكيدة تخطط لها جيدا .

بحث السلطان الطريد عمن يساعده على استرداد عرشه ولم يكن له من يستشيره سوى معشوقته بياتريس التي كانت لا تكف عن التفكير في كيفية استرداد ذلك العرش متظاهرة بأنها تحاول بذلك مساعدته والتخفيف عنه في حين أنها كانت تسعى من خلاله للانتقام من زوج خانها لم تكن تصرح قط باسمه هو (مروان بن عبد الملك) المغتصب الذي كان قد تزوجها في بلدها ثم هجرها قبل أن يأسرها المغاربة .

لم تتوقف بياتريس عن التفكير في هذا الموضوع والبحث عمن يساعد عشيقها على استرداد عرشه ورأت في ملك البرتغال (سبستيان) هدفها وأخبرت عشيقها بقدرتها على الوصول إلى الملك وإقناعه على استرجاع عرش سلطانها الطريد في مقابل إغرائه بضمان السيادة على السواحل المغربية وتوسيع رقعة مملكته بعد النصر وتمكنت من إقناع سلطانها الطريد باللجوء إلى البرتغال .

رتبت بياتريس للقاء ملك البرتغال الطامع في احتلال المغرب والسلطان الطريد الحالم باسترجاع عرشه لتنفذ مكيدتها وتحقق هدفها .

قام الملك بتجهيز جيشه وأعد العدة للحرب بجيش من المرتزقة الألمان والإيطاليين والإسبان مع الجنود البرتغاليين الذين انضم إليهم بعض الذين استطاع أن يضمهم السلطان الطريد عندما نزل الجيش البرتغالى بين طنجة والعرائش اللتين استولى عليهما الغزاة بعد قتال عنيف .

كان خبر الجيوش قد وصل إلى السلطان أبو مروان عبد الملك المعتصم فأعد عدته لمواجهة الغزاة من المرتزقة وجنود يد فعون عن أرضهم ، ورأى المعتصم أن يضرب ضربة قاضية ينهى بها المعركة فكلف أخاه أبا العباس أحمد أن يجهز جيشا يجمع له ما يستطيع من رجال وعتاد وفعل ابن أخيه ذلك ، فسار على رأس جيشه لملاقاة الغزاة وملكهم سبستيان وابن أخيه السلطان المعزول المرابطون في السهل الممتد حول مدينة (القصر الكبير) لكن الرياح تأتى بما لا تشتهى السفن ، فقد مرض السلطان أبو مروان مرضا شديدا وهو في الطريق إليهم وأقعده المرض عن الحركة ومنعه من قيادة قواته بنفسه ، فأمر أخاه بقيادة الجيش وأن يعد له مكانا يتابع منه سير المعركة وهو على فراش المرض .

نشر أحمد القوات المغربية في مواجهة الغزاة وفقا لانتشارهم ورسم خطة لمهاجمتهم والقضاء عليهم ، وبالفعل كان هو البادئ بالقتال صابا نيران المدافع المغربية على جناحى العدو ، ثم انطلق الفرسان إلى الميدان ودارت رحى المعركة وسالت الدماء فتقهقر الغزاة مدحورين تهرع خيولهم على غير هدى في السهل فطاردهم المغاربة الذين كان عددهم خمسين ألفا وهو نصف عدد الغزاة علاوة على امتلاك الغزاة لستة وثلاثين مدفعا ضخما ووجود بضعة آلاف من الفرسان ضمن أفراد

الجيش .

وانطلق المشاة بعد ذلك وتقارعت السيوف في قتال رهيب كان للمغاربة الغلبة فيه والسلطان يتابع المعركة بارتياح كبير لما يحققه جنوده من انتصارات وشعر أن النصر حليفهم لا محالة فأغمض عينيه التي أنهكها طول المتابعة مع المرض .

دخل القائد المنتصر أبو العباس أحمد على أخيه السلطان فوجده قد أغمض عينية إلى الأبد فأسدل ستائر الاستراحة وأمر أربعة من الحرس بألا يسمحوا لأحد بالدخول إلى السلطان لأنه يريد أن يستريح بعد طول الإجهاد .

انطلق القائد يحث جنوده على القتال والزحف خلف الأعداء لإلقائهم في مياه النهر ، وهجم الجنود المغاربة على فلول الغزاة المندحرة وضربوا ضربتهم القاضية ، فتشتت الأعداء لينال معظمهم مصيره فيقتل ، بينما هرب الباقون الذين غرق معظمهم في النهر وكان معهم السلطان الهارب أبو عبد الله المتوكل الذي كان يحاول اجتياز النهر سباحة فغرق ولحقه حليفه الملك البرتغالى سبستيان الذي جرفه التيار ، فغرق هو الآخر ، أما السلطان مروان بن عبد الله فقد مات على فراشه بعد أن اطمأن انتصار جيشه .

لم يبق من القادة الثلاثة أحد فقد مات السلطان مروان وابن أخيه السلطان الطريد وملك البرتغال ولم يبق سوى (بياتريس) التي حاكت المكيدة لكنها لم تستطع مواجهة الموقف وفضلت أن تلقى بنفسها في المحيط لتتخلص من حياتها في حين كان زوجها السابق مروان يلاحقها للانتقام منها .

* * *